شياطين صغيرة

بثينة الدسوقي / مصر

هل كان بيتها؟ أظنه كان حصنها..

ذلك ما كنت أراه في تلك العجوز التي تسكن إلى جوارنا في تلك الضاحية الهادئة قرب شاطئ البحر، لا أدري لماذا ظل مشـــهدها يراودني دوماً وكأنها التصـــقت بعيني منذ طفولتي وكنت أتعجّب لماذا لا تكبر كما أكبر أنا ؟ هل تخطت حاجز الزمن ، تخطت حاجز الكبر وسـتظل هكذا محل نكاتنا وسـخرياتنا في كل جلساتنا.

لم أســـأم قط من مراقبتي لها من فوق ســـطح بيتنا المليء بالخردة والذي اجتهدت أمي مع كل ســـيدات العمارة في إسـباغ القُبح عليه وتكديسـه بكل شـيء حتى صـار مرتعاً للفئران، ولنا ، أقصـد أصـدقائي المجانين الذين كانت أمي تكرههم وتنعتني بالفشل لإصراري على صحبتهم، وعندما حلمت يوماً بسطح رائق به تكعيبة عنب وكرسي هزاز أرى منه البحر سخرت مني أمي كثيراً.

دوماً هي الأحلام تصحَبها سخرية العاجزين.

أما العجوز ، فقد كان لها بيتاً غريب المظهر وســـط بيوتنا العالية، وغريب المظهر تعني برأي فتى العاشـرة الذي كنته وقتها أنه كان ذا سـياج، سـياج حديدي يلتف حول بيتها المكوّن من طابقين ، وكان لديها ممشـــى يمتد من الســـياج الأمامي و يحيط به من الجانبين أحواض للنباتات ، يغلب عليها نبات رمادي ، وريقاته تنبســـط على ما حولها في بهاء قطيفي، أما قرب مدخل بيتها فهناك حوض صـــغير تملؤه نباتات خضراء قصيرة العمر، كنت أرقبها دوماً وهي تقطف منه كل حين شيئاً ما ، بعض أوراق النعناع أو الرياحين التي كانت تزين بها طاولة كبيرة في منتصف صـالة الإستقبال التي استقبلتني وأمي بها ذات يوم.

تظلل ذاكرتي الآن غمامة رمادية عندما أحاول تذكُر بداية الأمر، أحاول معرفة أي شـــيطان منّا كان صاحب فكرة إخافتها، ولكن هذا لا يهم الآن، ما يهم هو كيف سار الأمر.

بالطبع تســلقنا الســياج الواطيء في جُنح الليل وتســللنا متفرقين في عدة اتجاهات، وبدأنا جنوناً لا حد لـه، كنت أنا المنوط بالدخول وإلقاء الكيس الغير مُحكم الإغلاق في ردهة البيت، وكان عليهم جذب انتباهها إلى الجهة الأخرى، فعل الشـــياطين ذلك كالإتفاق تماماً بإحداث أصـــوات مرعبة ولوح أحدهم بعصـــا مُرتدية زي خيال المآتة أمام النافذة المُضـــاءة، لمحت ظلها كالشـــبح يتحرك في اتجاه النافذة الأخرى فوثبت إلى الشـرفة المُوارب بابها ودخلت بخفة قط، كان قلبي ينتفض بعنف وأنا أتلمس طريقي إلى الداخل، ولمحت حينئذ المنضـدة التي يتراص فوقها طاقم الشـاي الذي شـربت منه أمي، لا أدري

لماذا انقبض قلبي وكدت أتراجع هارباً، لكني سمعت أصوات الرفاق بالخارج يحركون الأشجار القريبة بعنف لتُشكّل مع صوت البحر أعنف آيات الرعب، فخفت شماتتهم وتقدمت قليلاً

فتحت الكيس وتركته في الظلام على أرض ردهة الإستقبال، كان هذا آخر ما أذكره عن تلك الليلة..

استيقظت صباحاً على صوت والديّ يتشاجران كالعادة، لعلهما يستأنفان مشاجرة الأمس.

ومر يومي باهتاً حتى التقيت الرفاق عصراً عند البحر، كانوا يضحكون كالبُلهاء فتركتهم وهرعت إلى بيت العجوز أتلمس الأخبار، مكثت طويلاً جوار السياج حتى ظهرت كعادتها تقطف الرياحين، ولمحتني فنادت لتبلغني سلامها لأمي..

عدت مطمئناً إلى الرفاق الذين خذلهم الخبر وأكدوا أن المؤامرة باءت بفشل، وبدأوا بالتفكير في مؤامرة جديدة.

لم يمهلنا القدر لإعداد تلك المؤامرة الأخرى، فبعد عدة أيام انطلق العويل من بيت العجوز

وارتدت أمي السواد لتعزي ابنتيها بينما جاء أحفادها إلى شاطيء البحر حيث أنفقنا الوقت في اللعب كعادتنا كلما زاروها.

أتذكر الآن ماحدث وكأنه فيلم بالأبيض والأسود، شريط مهتز يمر بخيالي، وذلك عندما التقيت حفيدها بعد انقضاء الأعوام الطوال

أخبرني الرجل أنه لن ينسى أيام طفولته البعيدة البريئة ولعبنا معاً على الشاطيء

وقادنا الحديث إلى جدته وبيتها الغريب، أكد لي أنه كان دوماً يخشى البيت وردهاته الباردة التي قد تختبيء في اركانها الحيّات، أكد أنه كان على حق، تذكرت الكيس الذي كان بيدي يوماً بعيداً وكيف أكد لنا البائع أن الحية منزوع سمّها، وارتجف جفني

استطرد الرجل في حكي تفاصيل كثيرة، وتركني في النهاية وهو يؤكد أن جدته قضت نحبها بلدغة ثعبان.